## الإمام زين العابدين «عليه السلام».. سيِّد الساجدين



في الخامس والعشرين من شهر محر َّم الحرام، تصادف ذكرى وفاة الإمام علي ّ بن الحسين - عليه السلام - زين العابدين وسي ِ ّد الساجدين. هذا الإمام الذي عندما ي ُذك َر، فإن ّه ت ُذك َر معه أصعب المراحل التي مر ّ َت على بيت رسول ا □ - صلى ا □ عليه وآله وسلم-، فقد شهد واقعة كربلاء بكل ّ مجرياتها، وقد كان خلالها عليلا ً لمرض ٍ أصابه، وأمام عينيه، وعلى مرأى منه، استشهد أبوه الحسين - عليه السلام -وإخوانه وأعمامه وأهل بيته وأصحاب أبيه، وهذا أقسى ما قد يواجهه إنسان.

وبعد الانتهاء من المعركة، ورغم كلّ الآلام والمصائب والأحقاد وأغلال الأسر، لم تضعف ولم تهن من عزيمته، فهو بقي صلباً صلابة الإيمان الذي عاشه في قلبه، والمسؤولية التي تحمّ لها بعد استشهاد أبيه - عليه السلام -. كان يتحدّ إليه كما يتحدّ الإمام إلى الإمام الحسين - عليه السلام - كان يتحدّ إليه كما يتحدّ الإمام إلى الإمام الذي سيخلفه؛ فكان يعطيه من عقله عقلاً، ومن علمه علماً، ومن روحانيته روحانية ، ومن زهده زهدا ً، ومن عبادة ً، ومن شجاعته وصلابته شجاعة ً وصلابة ً. وهكذا عاش الإمام - عليه السلام - عمق المأساة عندما كان يشاهد ما يجري على أبيه وإخوته وأعمامه وأصحابه، وبقيت تحفر في مشاعره وأحاسيسه، وكان يتذكّرها دائما ً ويذكّر الناس بها، ولعلّ الإمام زين العابدين - عليه السلام - هو الذي أسّس لإحياء ذكرى عاشوراء، لأنّه كان يتحدّ عمّا حدث في عاشوراء للكثيرين من الناس بالطريقة التي يعيش فيها الناس الإحساس بالحزن.

لقد رأى الإمام - عليه السلام - أن "الأُم ّءَ تحتاج في تلك المرحلة إلى إعادة تأهيل، لتخرج من جهلها وضعفها وهزيمتها التي كانت السبب في خذلانها للإمام الحسين - عليه السلام -، وللإمام الحسن -عليه السلام - من قبله، وقد تمي ّز أسلوبه باستخدام الد ّ عاء لبلوغ هذا الهدف، فتحو ّ َل الد ّ عاء عنده من كونه تواصلا ً روحيا ً ووجدانيا ً بين الإنسان ورب ّ ِه، إلى وسيلة تغيير للمفاهيم والسلوك، فلم يعد الإنسان يكتفي في الد ّ عاء بالطلب من رب ّ ِه المغفرة والرحمة، والدخول إلى الجن ق والب ُعد عن النار، أو بلوغ الحاجات التي يحتاجها، أو كشف الهموم التي يريد من ا □ أن يفر ّ ِجها له فحسب، بل مار الد ّ عاء أداة تربوية وتثقيفية على المستوى الفكري والعقيدي والروحي والاجتماعي والسياسي.

وفي دعائه في «مكارم الأخلاق»، غيّر مفهوم النظر إلى الحياة، ليبيّن أن قيمتها بمقدار ما تكون في طاعة ا□، وإ لا قيمة لها، ولذلك قال: «اللهّهُم وءَم ِ سرني ما كان عُمري بذلَة ً في طاء َتك، فإذا كان عُمري مر ْتَعا ً للشيطان ِ، فاقبضني إليك ق َبل َ أن ي َسب ِق َ م َقت ُك إلي ّ َ، أو ي َست َحك ِم َ غَض َب ُك ع َلميّ آ». ولم يكتف ِ الإمام (عليه السلام) بالد ُ عاء كوسيلة للتربية والتوجيه ولإيقاظ الأ ُم ّ َة، بل رسم َ في رسالته (رسالة الحقوق) ـ هذه الوثيقة التي شغلت بال الكثير من الحقوقيين في الغرب، رسم فيها للإنسان مسؤولياته في الحياة، فقد وس ّ َع دائرة المسؤولية، فالإنسان هو مسؤول تجاه ربه وهو مسؤول تجاه جوارحه؛ فللسان حقه، وللسمع حقه، وللبصر حقه، وللبطن حقه، ومسؤول عن كل عمل أمر به، وكل فعل من أفعاله، بأن يؤد ّ يه على أصوله، وهو مسؤول عم ّن يعيشون معه من الأقربين والأبعدين، وفي أيّ موقع، وبذلك يرى الإنسان أن سؤوليته تطاول كل ّ َ شيء في الحياة.

ولم يقف الإمام زين العابدين - عليه السلام - على هذه التوجيهات نظريا ً، بل شكَّل من نفسه نموذجا ً يُقتدى، فكان مثالا ً في العلم والعبادة والخشوع بين يدي ا∏، وفي الحلم وكظم الغيظ، وفي الصدقة وإعانة الفقراء، حتى إنَّه كان يستبشر عندما يأتيه فقير، ويقول: «مرحبا ً بمن جاء يحمل زادنا إلى ربَّنا». وتذكر سيرته، أنَّه كان يعول أهل بيوت كثيرة في المدينة، ولم يعرفوه إَّلا بعد ارتحاله، عندما انقطع عطاؤه عنهم.